ساعات عزيزانية

ـ هيا يا منتهى ، اذهبي الى جناح الداخلية . ثمة جرحي جدد والتفت اليها .. العرق حبب على وجهها .. شعرت بدفقة نارية في أعماقي

ـ ها أنذا ذاهبة .

سمعت خطواتي تطفى على السكون المخيم في المشفى . من خلال النافذة المفتوحة رأيت مجموعة من السيارات المطينة ، وارتدت عيناي لترتطما بالباب الابيض المتسخ .

لماذا لم اسألها عن جراحهم ان كانت خطيرة ؟ وعجلت الخطو .. دخلت الجناح . الحركة الصاخبة الملابس البيضاء تروح .. تغدو في حركة دائمة بينما أقرأ في العيون ظلال فلق .

ذلك السرير كان خاليا قبل لحظات . وها أنذا أشهده مملوءا وجه اسود من بعيد لا ملامح فيه لوجه انسان ... قطعة متفحمة ... صوت الانين من هنا وهناك يملأ جو القاعة الكبيرة .

سمعت عن الصواعق التي تنزل في الشتاء على بعض الناس قالت لي جدتي : ولدت حسنة يوم أصابت الصاعقة جارنا عبدالصمد .كان كالفحم والوجه الممدود امامي كالفحم . الجسد تقلص حتى غدا بحجم طفل في العاشرة من عمره . الايادي تمتد اليه بما يشبه الدم تسكب فوقه (المايكروم)

ـ تقدمي يا منتهى واسعفي الآخر .

والنفس يغدو ثقيلا كأنه يسحب من بئر سحيقة لا ماء فيها . الزفير المخنوق والشهيق المجهد اسمعهما على ارتفاع وانخفاض . الصدر المسود الذي غدا كقطعة من الاسفنج . والدماء المتخثرة كأنها ترسم صورا لاناس تاهوا في الصحراء ثم سقطوا في بحيرة الدم.

يداي تتحركان بآلية غريبة تصبان السائل الدموي .. يمتزج الدم . الدم المتخثر به يطمر بعضا من الحفر الصغيرة .

« الرفوش تخدش الارض تفتح فيها الثغرات والايادي ترتفع خفيفة وتهبط ثقيلة تصنع أشكالا هندسية قيل أنها خنادق واستحكامات حتى لا يعبر العدو »

ومع كل هذا ما زال عدد الجرحى يزداد ساعة اثر ساعة .

أبعدت عيني عن الوجه ، فلقد كانت معالمه مطموسة ، انتفاضات تبعث الاشمئزاز . بماذا يشعر هذا الميت الحي ؟ لماذا لا تتحرك الشفتان المنتفختان ؟ .. تتحركان بثقل وينبعث صوت آت من بعيد ـ اريد ماء .

ويحز في قلبي سكين . لن أستطيع ان أعطيه ما يطلب ـ هذه هي التعليمات ـ

تناهى الى سمعي اصوات استغاثات مكبوتة . اشعر بها تخترق الصدر لتنصب عملاقة حمراء الجدران حمراء .. ووجه زميلتي أحمر ... والسرير أحمر .. كل شيء أحمر حتى الهواء جربت بعد ان القيت من يدي الزجاجة . تمنيت أن أكون الان هناك واسمع الاصوات الطائرات القنابل .. النار ..

« أطلق يا محمد كدت تصيبها .. ها هي ذي تعود .أطلق.اطلق».

آه . واسمع صرخة من الداخل يرتج لها المكان وتنخر عظامي أصوات آتية من بعيد

ـ أين بابا ؟

ـ ذهب يشتري لكم حلوى

ـ متى يعود ؟

ـ بعد قليل .

تشبث الوجوه الصغيرة أمامي .. آلاف العيون الصغيرة المتسائلة ... والاف الحناجر الهاتفة .

ـ ماما لماذا صبغت النوافذ ؟

○ نامـوا .

ـ ولكن لماذا صبغت النوافذ ؟

○ نامـوا .

وينام الاطفال وتمد الام أصبعها الى النافذة وتسحبه على الزجاج لتنظر اليه . كان ازرق لا .. بل احمر .. كل شيء غدا بلون الدم .

تنهدت في أعماقي تلك الانسانة الوادعة المسالمة التي تنتظر حبيبها والتي كنتها قبل ان يمر حزيران الشيخ على بيوتنا ويصبح كل شيء. وتتمرد اخرى قوية عنيدة تتمنى ان تكون الان هناك معهم وهم يصرخون .. وهم. يطلقون ، ولكنها لن تكون ابدا وهم يتراجعون ستموت لو حدث ذلك .

ـ كان عدد الجرحى اليوم أكثر منه البارحة .

وصرخت بغضب محموم :

ـ وسيزداد غدا وغدا . وغدا علينا أن ننتظر كثيرا ونعد كثيرا وندفن كثيرا .

لا حرب دون جرحى وقد يكون هناك جرحى دون حرب .

وربتت على كتفي يد حانية . التفت لاجد هدى امامي

ـ ما بك يا منتهى ؟ أنت متعبة لا شك .

وأجبتها : أجل أنا متعبة ـ ومع ذلك فانني لا استطيع النوم بل قولي انني لا أريد النوم .

ابتسمت هدى .

ـ ولكن ينبغي ان تستريحي قليلا .

وهذه الدفقات المتتالية من الجرحى ؟ من يستطيع النوم ؟ بل كيف أستطيع ان أغفو وأنا اتصور أنه في أية لحظة قد تنقض طائرة علينا لتنفي هذا المستشفى ؟

ـ حسنا خذي قائمة جرحى الجناح الذين شاركت فيإسعافهم الان .

وتناولت الورقة .. البياض فيها قليل ويصل الرقم الى الخمسين أو أكثر . تـ ت هدى متجهة الى الجناح وتبعتها . التفتت الي وقد ارتسمت على وجهها ظل ابتسامة حزينة .

ـ لم تقولي ما هي أخبار سعيد ؟

ابتسمت أنا الاخرى فأنا اعرف أن هدى تحب سعيد كثيرا واعرف أنها تنتظره حتى يعود ، فهو يدرس في بلاد بعيدة عن هنا ، تعيش في سلام .

ـ لا ادري . ألم يرسل لك رسالة ؟

ـ منذ شهر لم أتلق منه أي شيء .

أجبتها وأنا ادخل جناح الجرحى .

ـ أنت تعرفين انه عنيد ،ولا بد ان الاحداث تشغلهم الان كثيرا .

في طريقي الى الممر الداخلي والاصوات بعيدة تعود من جديد.. تحز عظامي بسكين متلمة وتنتقل عيناي بين السطور من أسم الى آخر . كلها أسماء مألوفة . كأنني اعرفهم جميعا . ومع ذلك فأنا لا اعرف واحدا منهم . ولكن مهلا من هذا الاسم ؟ من هذا الاسم ؟

ان لي شقيقا بهذا الاسم . أجل أخي سعيد . ولكن في بلاد بعيدة تعيش الان بسلام وأنا أعرف جيدا . وجهه نسخة عي وجهن وكثيرا ما كانت امي تقول :

ـ لو خلقه الله انثى لكان أنت .

كنت العب معه كثيرا وكثيرا ما كنا نتشاجر ويصفع أحدنا الاخر وكثيرا ما كانت الصفعات تستقر على وجهينا .

ـ لا ليس هو ، لعل الاسم يشابه أسمه .

كيف لم استطع تمييز وجهه وأنا اسمعهم ؟ أسرع . . اسرع، عيناي تقفزان الوجوه ، رأسي يدور بكلمات لا افهمها لاعيد النظر في كل وجه . اسمه يحمل الرقم عشرة . حسنا، الى الرقم عشرة، ولكن سابحت في كل الوجوه . هذا هو السرير رقم واحد بالتأكيد انه ليس هو ولكن ربما كان من يدري ؟ ففد ضاعت الملامح . اصبحت الوجوه كلها متشابهة هذا هو السرير رقم ٢ وهذا رقم ثلاثة الجريحان متشابهان واخي في بلاد تعيش الان في دعة وسلام ..كلهم مخضبون بالدماء وكلهم فد ضاعت ملامحهم فهو الامر بالنسبة للسرير رقم اربعة وخمسة . وستة وتسعة ولكن ماذا بالنسبة للسرير رقم عشرة؟ وجهه هو ذاته وجه اي واحد منهم . أقترب من السرير . انه لا يتحرك نفسه هو الذي يروح ويغدو في رئتيه . كيف أستطيع ان أميز انه هو ؟ لا بد ان شيئا ما يميزه .

أجل ... صوته !

لا أظن ان الاصوات فد تغيرت ولكنه في غيبوبة فلانتظراذن صحوته.

تسمرت بجانب السرير قطعة جليد . والملامح غائمة .. غائبة .. مغمورة ولكن الصوت . أجل الصوت ينبغي ان أسمع ما يقول

ينبغي ان يتكلم .

ـ اريد ماء .

كنا صغارا والشمس متوقدة ..وكنت ظمأى . يده على كتفي ونحن نتسلق الهضبة الصغيرة صرخ فجأة .

ـ منتهى . الافعى .

تطلعت حولي بخوف ولكنني لم ار شيئا تعلقت برفبته الواهنة وظللت خائفة طوال ذلك اليوم .

ها هو الان امامي . ان كان هو . الصوت بيننا ... جثة هامدة ستتوضح معالمها بعد أيام والصوت هو المملاق الظاهر في لجة النهار .

ـ اريد ماء .

أصخت السمع ... شعرت بضربات قلبي ضاربة تكاد تمزق الصدر .

ـ ماذا ؟

من الذي يتكلم ؟ انه هو وليس هنالك احد غيره .

ـ هو ، أجل أنت هو .

تناثرت الكلمات من فمي . أنت هو .. سعيد . متى عدت. سعيد ؟

وبصعوبة بالغة في الضجة والطنين سمعت صوته كأنه آت من اخر الدنيا .

ـ منتهى !

تثب الثواني امامي بسرعة مذهلة .. هكذا لا يختلف عن غيره سوى انه أخي .. سوى انه رفيقي سوى انه حبيبي .. كل حياتي الماضية وكل املي المقبل .. اذكر ليالي الجوع التي قضيتها وانا اعمل صامتة لارسل له النقود القليلة التي يحتاجها .. كنت اريده طبيبا .. واريد ان ارتاح من هم الدنيا على صدره وكنت احبه كثيرا .. تجمدت ، لم امزق ثيابي ولم اصرخ .. لم انثر الكلمات .. فقد احسستها رخيصة تافهة ، لم اكن املك غير الدموع.

أجل دعها تجرح خدي .

ـ منتهى ، لقد هزمنا يا منتهى .

الكلمات بطيئة كالحشرجاتوانا أشعر بالخناجر تغمد في كل اجزاء جسمي ولكنها لم تكن خناجر ساحر . كانت خناجر نفتحافواه الدم في الداخل وفي الخارج على حد سواء .

ـ كنت تقولين باننا سننتصر .. لقد زعمت ذلك .

وقاتلت . أقسم انني قاتلت .. ولكن الطائرات يا منتهى ... الطائرات . لم استطع رؤية السماء لقد كانت السماء سوداء فيوضح النهار بدلا من ان اعدو الى الغرب عدوت الى الشرق . اجل يا منتهى . شاهدت السماء في عيني .. شاهدت الشمس . لقدهبطت على الارض وحرقت كل شيء أقسم أنني رأيت شجر الزيتونيحترق! أجل .. اقسم ، ألا تصدقينني ؟ لماذا لا تعطيني ماء .

ـ ابتعدي عنه يا منتهى !

ـ ولكنه أخي .

ـ ينبغي ان تبتعدي لانه أخوك ، حاولي ان تستريحي قليلا سأشرف عليه بنفسي .

الثياب البيضاء .. الوجه المتفحم ... لست ادري .. عدوت ، تهالكت على أول سرير . كنت غائبة عن العالم وكن حولي وكان الصمت سيد الاحكام .. انقل عيني من وجه الى وجه العيون رأيات منكسة ... وصوت الهزيمة المبحوح يكاد ان يختنق في الحناجر الجافة وافرأ الف سؤال .

ـ كيف ؟ ... كيف ؟ .. كيف ؟.

لا شك انني احلم ... أجل لماذا لا ... أنا لا أصدق اننا هزمنا فقد قالوا لي سنقود الجماهير الى النصر هكذا منذ ان وعيت بين صفوفهم . سيوقظني أحدهم الان ليقول لي كنت نائمة وكنت تحلمين يا منتهى وكنت تعرفين لا شك انك رأيت كابوسا مرعبا .

ـ أجل ؟ فلا يعقل ان يكون هذا الصمت حقيقة ان يكون في الصحو .. مثل هذا الصمت لا يحدث الا في المنام وانا في السرير الان دون غطاء .. اذن انا نائمة .. ليتكلم احدهم .

أنت يا هدى ... سعيد حبيبك لماذا أنت صامتة ؟

يصدني جدار الصمت دمعتان ساخنتان احس بحرارتهما وانا بعيدة عنهما تنحدران من محجري هدى بينما الدمع تحجر في كل العيون الباقية . لماذا أنتن صامتات ؟

الوجوه امامي مصطفة في حركة فوضوية غريبة .. تدور .. لماذا نحن هنا وما الذي نحمل في ايدينا لماذا لا نحمل شيئا ؟

ـ هل المعركة مستمرة

ـ اعلن وقف اطلاق النار .

ولكنني أريد ان اقاتل .. كيف يعلن وقف اطلاق النار ؟. لايمكن لا بد انهم مخطئون . فقد قالوا لي انهم سيقاتلون حتى اخر رصاصة .. حتى اخر رجل ..

ـ انتهى كل شيء .

مستحيل .. لماذا اذن ما زلت احمل هذه البندقية ؟

وجاء صوت من بعيد .

ـ ربما نشب القتال من جديد ، فالعدو يرفض ان يتوقف .

ـ ولماذا نقبل نحن ان نتوقف ؟

وجاءني الصمت زوبعة مبهمة ... حركة غريبة تدور هنا في المبنى الكبير .. المذيعون يركضون كل يحمل بندقيته .. يحيونني بايماءة ثم يختفون خلف الابواب لتطالعني لافتة حمراء تقول صمت .. على الهواء .

صمت .. صمت ..لماذا الصمت كنا نتكلم كثيرا .. وكنا نحلم كثيرا .. والان فقط صمت . تكلموا قولوا اي شيء للناس

تنساب الموسيقى الحزينة تتسلل الى القلوب الخائبة فتفطرها وانا اريد أن اقاتل .. لماذا لا يضحك اي وجه هنا ؟. ما .بال يوسف يجلس حزينا منكس الرأس .. منكر النظرات لا يتحرك فيه غير اصبعيه اللذين يمسكان باللفافة المشتعلة ؟ لقد عهدته عنوان حركة دائمة ..

عيناه .. شفتاه .. يداه وهو يلقي الشعر عن فلسطين . ما باله الان ؟

اصحيح اننا هزمنا ؟.. وجه يوسف يقول لي نعم .

المقاعد الجامدة في الغرفة الملأى بالدخان تنبيء بذلك .. وانا أوزع عيني تائهة بينهم ابحث في وجوههم .. لقد تحولوا خلال ستة ايام الى تماثيل جامدة .

وتقفز الى ذهني الايام التي سبقت المعركة .. والتصريحات الكثيرة .. والتاكيدات على الخوض حتى النهاية . اف ما اقرب النهاية عندنا .. الشوارع الملأى بسيارات محشوة بالرجال والبنادق والمزينة باوراق الشجر .

واذكر تجمعاتنا في بوفيه الجامعة نتكلم عن الحرب نثرثر عن النصر .. نؤكد . كانت ضحكاتنا تطغى على الاغاني القوميه ... كنت اراهن عادل على انني سامضي عطلة الصيف في تل ابيب وكنت ارغب زيارة حيفا ويافا وكنت اؤكد انني سأمر في مسقط رأسه « الطيرة » آه من تلك الايام .. كم هي ثقيلة وكم أنت ثقيلة أيتها البندقية الخرساء.. حتى البنادق لا تتكلم ووجه يوسف لا يتكلم .. والمذيع لا يتكلم ودمشق لم اعهدها صامتة بهذا الشكل

لماذا لا أتحرك أنا ولماذا لا أتكلم ؟

ويرن الهاتف في الاذاعة وتمتد يد بطيئة لترفع السماعة وسط ذهول مخيم على الجميع .

ـ آلو .. نعم ماذا يا رفيق .. اعادة اطلاق النار .. سنعلنها حالا .

واقفز مسرعة الى الغرفة الصامتة واتعلق بالمايكرفون ويبدأ صراخي .. هل يسمعني الرجال المرابطون في الخنادق . . لينطلق الرصاص من جديد .. لتتحدث بنادقكم ايها الرجال . وتسري في الجو حركة جديدة حركة فيها خوف وفيها توقعات حركة مترددة رغم ان هذه الحركة تعلن ان المعركة قد استمرت « قلبي معكم ايها الرجال قاتلوا حتى اخر رصاصة » .

وتمتد يد أحد المذيعين تشدني الى خارج الغرفة والدموع تبلل وجهي تتساقط كالقنابل التي تصبها الطائرات الان فوق دمشق ..

ـ أنت لا تشعرين كيف تخرج الكلمات من فمك . فكل كلمة تقولينها تفرز الهزيمة .. تماسكي . وعليك ان تكوني صابرة.

« لقد سئمت هذه الكلمة كم سمعتها أمي كانت تقولها وأبي كان يرددها كلما قلت له بأنني لا أستطيع متابعة الدراسة على ضوء مصباح الكاز وكلما قلت ان الطعام رديء .. وكلما ارتجفت في الليالي القارسة دون رداء .. وكلما داهمني المرض من ضيق غرفتنا وكلما تذمرت من الصيام .. دائما عليك ان تكوني صابرة يا منتهى ... كانت امي خلال اربعين عاما صابرة أيضا وكانت جدتي صابرة ايضا .. الله كم صبرنا ! أشعر اننا استنفدنا كل ذرة من مخزن الصبر خلال مئات السنين من الصبر » .

وانهد في الممر متكئة الى بندقيتي جامدة كقطعة من الصخر .

وتمر الساعات بطيئة مملة وصوت المذيع يكرر ويكرر .

ـ اضرب .. اضرب ... اقتل

وانا متنقلة بين المستشفى والاذاعة .كان عدد الجرحى المتزايد ينمي بي الرغبة التي أحاول ان أسترها بالكلمات فلا أستطيع كنت أقرأ الرغبة ذاتها في عيون كثيرة كانت قبل ساعات تتحرق مثلي .

« لماذا لا يتوقف أطلاق النار »

تحول النزف الى سيل هادر فلماذا لا يتوقف اطلاق النار . لقد هزمنا ، وانتهت الجولة .

وفي اليوم التالي ودعت جثمان اخي الى قبره .. دفن دون اكفان دون ازهار .. بل دون دموع . وأتيت اليكم لاقاتل معكم حتى اخر رصاصة .. حتى اخر رجل .. حتى اخر طفل فكيف تسألني ايها الرفيق لماذا أتيت الى هنا ؟

دمشق — حميدة نعنع

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

- من أدبنا المعاصر
  للدكتور طه حسين
- قضايا جديدة في ادبنا الحديث
  للدكتور محمد مندور
- مشكلة الحب
  للدكتور زكريا ابراهيم
- تجديد رسالة الغفران
  لخليل هنداوي
- دراسات في الادب الجزائري
  لابو القاسم سعد الله
- بابا همنغواي
  لهوتشنر
- الادب المسؤول
  رئيف خوري